تقدمة الكتاب

لانزاع فى أن الغرض الاسمى من التربية هو بناء الاخلاق ، بأوسع معانى هذه الكلمة . فالعلوم والمعارف وأنواع المهارة التى يحصل التلميذ عليها فى المدرسة ليست الا وسائل يقصد منها تسديد سلوك المرء فى حياته ، وتوجيهه الى ما يعود عليه وعلى المجتمع بالنفع والسعادة

ولا نزاع كذلك فى أننا إذا قسنا مقدار نجاح مدارسنا أو منازلنا فى تربية الاطفال بهذا المقياس ، وجدنا انها قد فشلت فشلا ذريعا ، لأن معظم شبابنا يقضون حياتهم على صورة ، إن لم تكن فاسدة مؤذية ، فهى على كل حال سلبية غير منتجة . وقل أن نجد فيهم من جعل له فى الحياة مثلا اسمى يسعى الى تحقيقه وبحسن تدبير قواه وما يتهيأ له الظروف تدبيرا يدنيه منه

وقد نكون ظلمنا مدارسنا إذ رميناها بالفشل فى التربية الخلقية لأن الفشل والنجاح إنما يكونان نتيجة السعى والمحاولة . أما مدارسنا فهى فى شغل شاغل عن الاخلاق ، ولا تكاد تشعر أن من شأنها العناية لها إلا فى دائرة ضيقة ضعيفة الاثر . ذلك أن لها غاية أخرى لا تتصل بالحياة أو السلوك فى شىء ، ولها مقياساً آخر للنجاح والفشل فى مهمتها . هذه الغاية هى ملء اذهان التلاميذ بشتى أنواع المعلومات حتى يمكنهم افراغها فى ورقة الامتحان . وهذا المقياس الذى تقاس به صلاحية المدرسة هو « النتائج » وليس مما يؤثر فى النتائج تأثيراً ظاهراً أن تهتم المدارس بالوسائل التى تربى فى التلاميذ الشجاعة والرجولة ، والاعتماد على النفس ، والاخلاص للعمل . والتواضع ، والايثار ، والتضحية فى سبيل الصالح العام ، وما الى ذلك من الفضائل التى يفتقر اليها المجتمع المصرى ايما افتقار . لذلك كان

كل ما تعنى به المدرسة من اخلاق تلاميذها يتلخص فى كلمتين . هما : «حفظ النظام» وليس النظام شيئاً سوى المظاهر الخارجية للسلوك . فللمدرسة قوانين معروفة ، وعلى التلميذ أن يخضع لهذه القوانين طوعاً أو كرها . ومتى خضع التلاميذ لها فكل شى طيب . مادام التلميذ لا يتغيب عن الحصص ، ولا يتكلم مع جاره فى أثناء الدرس ، ولا يعصى أوامر معلمه ، ولا يضرب من هم اصغر منه سنا ، ولا يحدث ضوضاء فى أثناء فسحته . فهو حسن الاخلاق . أما اذا حدثته نفسه باقتراف جرم من هذه الجرائم . فهناك سلطة المدرسة وسطوتها لردعه . هناك العصا . والحبس والطرد من المدرسة ، وغير ذلك من الوسائل الكفيلة بكسر ارادته ، وردة الى الصواب. واذا ناقشت المعلمين فى هذه الطرق ، بادروا الى تعزيزها بحجج مألوفة. فالعقاب يحدث فى نفس التلميذ المألم يرتبط بالجرم فيمنع التلميذ عن تكراره وتمرين الطفل على النظام والطاعة الخ — سواء أكان بالرياضة والاقتناع أم بالقهر والاضطرار — يغرس فى نفسه عادات صالحة ، تنفعه فى مستقبل حياته

هذا ملخص فلسفة مدارسنا من الناحية الخلقية . وهى فلسفة عتيقة معيبة من من اية ناحية نظرنا اليها ، وقد كانت سائدة فى البلاد الاخرى ، ثم اخذت فى التلاشى. وحلت محلها الآن فلسفة جديدة ، هى التى يعتنقها مؤلف هذا الكتاب ويبسطها فيه للمربين المصريين

وجوهر هذه الفلسفة هو أن التربية الخلقية ينبغى أن ترمى الى تنمية شخصية الطفل ، وتقوية ارادته ، مع توجيه هذه الارادة فى الاتجاهات الصالحة . حتى يمكنه أن يستقل يوما ما عن المربى ، ويصبح قادراً على حكم نفسه بنفسه . وهذا لا يمكن الوصول اليه بالارغام والقمع ، لأن الارادة انما تقوم على الدوافع النفسية الداخلية ، والارغام لايتصل الا بالفعل الخارجى ، فقد تستطيع المدرسة بما لها من السلطة ، وباستعمال التخويف والعقاب ، أن تخضع التلميذ لارادتها ، وتحمله

على تنفيذ ما تريد منه تنفيذه ، ولكن هذا الخضوع قد يخفى تحته براكين ثائرة تنتظر الانفجار . لأن رغبات التلميذ الاصلية لا تزال باقية كما هى ، فالفعل لم يصادف فى نفس التلميذ رضى ، فلا يمكن أن يلتئم فى مجموعة الدوافع النفسية التى تنبنى عليها ارادته . ومن العبث القول بأن تكرار فعل ماتحت تأثير الخوف يحول هذا الفعل الى عادة ثابتة فهذا يتنافى مع علم النفس الحديث ، إذ أن من شروط تكوين العادات أن تصحب المران عليها لذة نفسية

فالقمع اذن قد يحفظ النظام الخارجى فى المدرسة ، ولكنه لا يهذب التلاميذ ، ولا ينمى شخصياتهم . لأن الشخصية لا تنمو الا فى جو من الحرية . لهذا كان اعتماد أنصار التربية الحديثة على ما أطلق عليه المؤلف « النشاط الحر » . فسلوك الطفل اذا ترك لنفسه ، نتيجة لدفعات غريزية وميول طبيعية قوية . فهو يحب الحركة والجرى واللعب ، ويحب الاجتماع بأترابه ، ويميل فى العادة الى التصدر والزعامة فيهم ، ويحب ان يقاتل وينتصر ، ويحب أن يبحث ويستكشف ، وأن يجمع ويقتنى . فليس للمربى أن يعترض هذه النزعات ويقمعها بل عليه أن ينتفع بما ينتج عنها من نشاط حر لذيذ ، ويوجهه فى الاتجاهات التى يبتغيها . لا تحاول أن تجعل من الطفل شيخاً قبل الأوان ، بل دعه يحيا حياة الطفولة التى تدفعه اليها طبيعته ، وشجعه على ذلك بكل ماتملك من الوسائل . وعليك أن تتخذ العدة لجعل هذا النشاط الطبيعى ميدانا للمران على الفضائل الخلقية والعقلية

ولكن كيف يتأتى ذلك ؟ واذا كنا نترك الطفل حراً يفعل مايشاء وتشاء له أهواؤه ، فما هو عمل المربى ، وأنى له أن يؤثر فى سلوك هذا الطفل ويهذب من أخلاقه ؟ والجواب على ذلك شطران : فالأول هو اننا نملك أن نهيء الظروف الملائمة لبعض أنواع النشاط دون الاخرى . والثانى هو أننا نستطيع أن نتصل بالطفل ونجعله يشاء مانشاؤه نحن . فالذى يؤخذ على التربية القديمة هو قهر الطفل

على القيام بشيء مارغم ارادته . فهذا ليس له قيمة تهذيبية . ويجب أن نتحاشاه بقدر المستطاع . ولكن يجب أن نقنع الطفل بما نريده من طريق العقل ، أو نستهويه اليه من طريق الشعور . فنجعله يرغب فيه بمحض ارادته . فاذا بدرت من الطفل هفوة ، فلا يكون إصلاحها بالقسوة والعقاب . بل بالبحث عن الدافع الذى دفعه اليها . ومعالجة هذا الدافع بما يتفق مع مزاج الطفل ونفسيته . فالعقاب لايثمر فى معالجة الاخلاق اذا كان المذنب لايشعر أنه يستحقه . والمهم اذن هو التأثير فى المذنب حتى يقتنع بخطئه ويستهجن العمل الذى وقع منه . وهذا التأثير سهل متى كانت علاقة المربى بأطفاله علاقة مودة وعطف من ناحيته وثقة ممزوجة بالحب والاحترام من ناحيتهم . ومتى كانت له دراية كافية بنفسية كل طفل وميوله وظروف حياته . وسيرى القارىء مثلا ناطقا لذلك فى هذا الكتاب

لعل القارىء يرى بجلاء من هذا الاستعراض بعد الشقة بين الانظمة والخطط التى تسير عليها مدارسنا وأساليب التربية الحديثة ، ويلمس حاجة المربين المصريين الى كتاب يشرح لهم هذه الاساليب شرحا عمليا واضحاً . والكتاب الذى بين يدينا هو أول خطوة فى سبيل سد هذه الحاجة . فمؤلفه قد درس أساليب التربية فى أمريكا وشاهد تطبيقها عمليا . ثم أتيحت له الفرصة ليطبقها بنفسه فى قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية . وها هو يصور للقراء صورة حية لتجاربه ، رسم فيها بكل صراحة وبساطة مشاهداته ، والطرق التى استعملها . والنتائج التى وصل اليها ، ممثلة فى دراسات فردية محسوسة . وهذه ولا شك خدمة جميلة يؤديها للتربية فى مصر

قد يختلف بعض القراء مع المؤلف فى شيء من ابحاثه النظرية ، وقد يرون أنه لم يستقص التحليل فى بعض الحالات الى نهايته . أو أن طرق العلاج التى استعملها احيانا لم تكن أفضل الطرق . ولكن هذه أمور

ثانوية . وهو لا يدعى أنه قال الكلمة النهائية فى الموضوع ، بل هو يعرض تجاربه للبحث والنقد ، وليس يضير الكتاب فى شىء أن يخطىء المؤلف فى الطرق الخاصة التى استعملها فى أية حالة بذاتها لان قيمة الكتاب الحقيقية هى فى الروح التى تتخلله من أول حرف الى آخر حرف فيه . والتى يصح أن تكون مثالا يتأمل فيه ويحتذيه كل مرب فى مصر . هى فى المبادىء الاساسية التى يعمل المؤلف على تطبيقها فى تربية الاطفال ، والتى مافتىء يكررها ويؤكدها ويوضحها فى هذا الكتاب حتى لايخرج القارىء منه الا وقد تشبعت بها نفسه . قيمة الكتاب الحقيقية ، فى أنه يحتوى على مثال عملى يلفت نظر المعلمين فى مصر الى ان واجبهم لايقتصر على تحفيظ الدروس ، بل أن عليهم واجبا أهم من ذلك هو العناية بأخلاق تلاميذهم وانهم مطالبون بدراسة هؤلاء التلاميذ فى فصول الدراسة وفى خارجها ، والاهتمام بكل بادرة تبدو منهم ، واستقصاء أسبابها ، وانتهاز الفرصة التى تتاح لهم لتكميل أخلاقهم

هذا الى ان الكتاب يلفت النظر الى طائفة من الفضائل التى تهمنا فى مصر بصفة خاصة لما لنقصنا الظاهر فيها من الاثر السيىء فى حياتنا . واذا كان المؤلف يقول انه لم يتفق الحالات التى وضعها ، وان الصدف وحدها هى التى ساقتها اليه ، فهذا بلا شك من محاسن الصدف .

وانى لسعيد اذ اتيحت لى قراءة مخطوطة هذا الكتاب ، وآمل أن يلاقى من زملائى المدرسين الاهتمام الذى يستحقه .

معهد التربية فى ٢١ يونيه سنة ١٩٣١ — اسماعيل محمود القبانى

مقدمة المؤلف

يبحث هذا الكتاب فى التربية من الوجهة العملية ، وبعبارة أخرى لايرمى المؤلف من ورائه الى أثبات بعض النظريات او نقض بعض النظريات الاخرى وانما يقصد فقط الى ايراد بعض الحوادث التى مرت عليه وهو يعالج موضوع التربية ، والمؤلف يشتغل بالتربية بحكم وظيفته وبحكم هوايته ، وتمر عليه بالطبع بعض الحالات التى تستدعى انتباهه وتتطلب منه الدرس والبحث . فيدرس ويبحث ثم يدون دراساته وابحاثه ، وهاهو يقدم دراساته وابحاثه للقراء مشفوعة برأيه فى العوامل والدوافع ، ومصحوبة أيضاً بشرح العلاج الذى رأى ان يتقدم به فى بعض هذه الحالات ، ولا يغفل ان يذكر النتائج التى ترتبت على هذا العلاج ، ثم يحاول ان يحلل هذه النتائج فان وجد أنه أخطأ سوف لايستنكف من ذكر هذه الاخطاء ، وان أصاب فسوف لايحمله سروره على المغالاة فى وصف هذا النجاح

هذه دراسات عملية موضوعية (Objective) لايجب ان يكون للاعتبارات الشخصية دخل فيها ، ولقد حرص المؤلف على ان يبقيها كذلك ، لقد حاول صادقا مخلصاً على ان يبقيها موضوعية من غير ان تتأثر بخواجله النفسية أو بمنازع نفسه من اهواء وشهوات ، وعسى أن يكون قد وفق الى هذا

ليس لهذا الكتاب غاية سوى بسط هذه الحالات كما حدثت ، وسوى تقديمها للاباء على العموم وللمشتغلين بالتربية منهم على الخصوص حتى يستعينوا بها على تربية الصبيان الذين فى عهدتهم

وليعلم القارىء أنى لم أنتق المادة التى هى موضوع هذا الكتاب ، وبمعنى

آخر لم ارتب الظروف بحيث احصل منها على مثل هذه الحالات . فليست هذه الحالات اذن من صنع المؤلف أو بتدبيره ، وما كان له فيها الا دور المتفرج الناقد الذى يستطيع ان يحلل الظواهر ويدون مشاهداته ، وبكلام صريح لم أقصد ان أدرس الفردية أو العصيان والتمرد مثلا ، لم اسع وراء هذه الظواهر الاخلاقية بشكل من الاشكال ، لم أنقب وراءها ، او ابحث عنها عن قصد وبارادتى ، وانما وقفت وقفة المتفرج ، اشاهد الصبيان الذين فى عهدتى ينشطون ، ثم اراقب هذا النشاط بطريقة علمية موضوعيـــة ، فاذا بانت على احدهم احدى هذه الظواهر الاخلاقية ، أبحثها ، واحللها ، واعالجها ، ثم أدون هذه جميعاً ، وبعد ذلك أنقد نفسى ، وانقد العلاج الذى استعملت ، والنتائج التى وصلت اليها ، ثم أدون هذه كلهـا أيضاً

يرى القارىء من هذا لماذا انا تخيرت هذه الظواهر الاخلاقية دون غيرها ، ولماذا لم أبحث بعض العناصر الاخرى للاخلاق ، يرى الآن لماذا اخترت الفردية والطاعة والخوف وغيرها ، ولم اتخير شيئاً آخر ، والسبب فى هذا الاختيار واضح وهو انى لم اتخير شيئاً فى الواقع ، وانما شاهدت شيئاً يقع تحت حسى فدونته فى كتاب وقدمته للجمهور

كانت بعض الحوادث تتطلب العلاج ، فتقدمت بعلاج بذاته ، والآن يحق للقارىء ان يسأل « ولماذا تقدمت بهذا العلاج دون غيره ؟ لماذا لم تتخير شيئاً آخر بخلافه ؟ » وهذا السؤال فى محله ويستدعى من المؤلف جواباً مقنعاً ان كان ذلك فى امكانه ، ولـكن الجواب على هذا السؤال يستدعى منا ان ندخل فى نظريات التربية ، وان نشرح مبادئها الاساسية وهذا مالا نزمع ان نفعله بشىء من التطويل فى هذا الـكتاب ، لأننا قد تقدمنا به فى كتاب آخر لمن شاء ان يرجع اليه ، وانما

هذا لايمنع بالطبع ان نشرح بالاختصار النظريات التى بنينا عليها هذا التصرف من جانبنا ، وقد فعلنا ، فاوردنا بعض الابحاث النظرية التى تتصل بموضوع هذا الكتاب . وحرصنا على ان يكون الجانب النظرى منه مختصرا مركزاً

وعلى هذا فقد خرج هذا الكتاب عملياً فى موضوعه بعيدا عن المسائل النظرية بقدر ماسمحت لنا به الظروف ، وبالاختضار نستطيع ان نزعم ان هذا الكتاب هو ترجمة لحياة بعض الصبيان ونشاطهم فى معهد الصبيان بجمعية الشبان المسيحية

فالى س ، ش ، ل ، و ، ا ، ع من أعضاء قسم الصبيان أتقدم بهذا الكتاب ، راجياً ان يكون أثرى فى حياتهم مما يعمل لجعل هذه الحياة سعيدة وفائضة وغنية بجلائل الاعمال

يعقوب فام